البنيوية التكوينية وآليات قراءة النص الأدبي

نعيمة بولكعيبات
جامعة الحاج لخضر . باتنة ⁂ الجزائر

ملخص

البنيوية التكوينية من المناهج الإشكالية التي عرفها النقد العربي، بما يمتلكه من خصوصية فلسفية ونقدية جعلت منه منهجا لينا وصعبا في آن، فهذا المنهج حاول التملص من شكلية البنيوية المنغلقة على نفسها، وخلق روابط وحلقات وصل بين النص كبنية مغلقة قائمة بذاتها والسياق الخارجي الذي تشكل فيه،والمؤسسات الاجتماعية التي يعبر عنها ويتأثر بها . وسأقوم في هذه الدراسة بتقديم لمحة عن المنهج البنيوي التكويني، وآلياته التطبيقية، ومقولاته المفهومية والمركزية في دراسة النص الأدبي، وأهمها : مصطلحات الفهم والتفسير، والبنية الدلالية، ورؤية العالم .

Abstract

Genetic structuralism is one of the problematic approaches dealt with within Arab literary criticism. It possesses a unique critical and philosophical character that make it both easy and difficult at the same time. It has tried, however, to create communication links between contextual criticism represented by the "social method" and textual criticism represented by the "structuralist approach". This study deals with genetic structuralism, its various mechanisms and terminology.

1 توطئة :

في إطار الدراسات السوسيولوجية التي اهتمت بدراسة النص الأدبي، لا بد من الوقوف عند مبادئ أهم نظرية نقدية حاولت تفسير النصوص الأدبية إنطلاقا من بعدها الاجتماعي، ومساعدة المنهج الشكلي وإخراجه من المأزق الذي وضع فيه . هذه النظرية التي أصل لها لوسيان غولدمان L.Goldman (1913 ـ 1970) الناقد الذي « سيبقى في التاريخ كمخترع ومكتشف شكل جديد من أشكال الفكر الرمزي ... وحتى إذا وجدنا هنا عددا من تأثيرات لوكاتش G.Luchas، فإن غولدمان قد بنى صرحا من المآثر والنظريات سيبقى على غاية من الأهمية في سوسيولوجيا الفكر، وفي نظرية المعرفة»[1]، ومما لا شك فيه أن غولدمان لم يؤسس لهذا المنهج من العدم، وإنما اعتمد في عمله على الإرث الهيغلي واللوكاتشي كما جاء ذلك في مقولة – جان بياجيه السابقة – واستطاع غولدمان أن يحول التفكير النقدي من الفردي إلى الجماعي دون إهمال لحقيقة النص الأدبي وخاصيته الأدبية؛ لأنه كان لا يؤمن بـ « الفكرة التي ترى في النصوص الأدبية إبداعات لعبقرية فردية وذهب إلى أن هذه النصوص تقوم على أبنية عقلية تتجاوز الفرد »[2] . وبهذا التفكير الماركسي استطاع غولدمان إكمال هذا الطريق في شكل جديد فيه الكثير من المرونة والإجرائية، أطلق عليه مصطلح "البنيوية التكوينية .

والبنيوية التكوينية نظرية تعتمد على أصول فكرية وفلسفية جعلتها من المناهج التي استطاعت استقطاب النقاد في عدد من أنحاء العالم، وذلك لما حققته من انتشار واسع على الساحة النقدية، والسبب يعود للفرضيات التي قدمتها، والمقولات التي وضعتها، فهي «تسعى إلى إعادة الاعتبار للعمل الأدبي والفكري في خصوصيته، دون أن تفصله عن علاقته بالمجتمع والتاريخ»[3]، فالبنيوية التكوينية تعمل على تحليل « البنية الداخلية لنص من النصوص رابطة إياه بحركة التاريخ الاجتماعي الذي ظهر فيه »[4]، واستطاع غولدمان تحقيق الفرق بين اهتمامات المنهج الشكلي في عزل النصوص عن واقعها التاريخي والاجتماعي، وبين اهتمامات البنيوية الماركسية التي تعيد للنص اعتباره بإرجاعه إلى جذوره التاريخية والاجتماعية. فـ« البنيوية التكوينية لـ لوسيان غولدمان تتضمن، بداهة،

إيديولوجيا، تصورا للعالم هو بدون شك تصور المادية الجدلية والتاريخية، ولكنها قبل كل شيء دليل منهجي لمقاربة النتاج»[5]. فهي منهج علمي يقارب النصوص الأدبية مقاربة علمية، وينظر إليها بقصد تحليلها وتفسيرها من داخلها، وربطها ببنيات ذهنية جماعية.

انطلقت البنيوية التكوينية من الجدل الهيجلي، الذي يعتمد على الفكر الكلي، والشمولي، فحقيقة العمل الأدبي لا تكمن عند الفرد وإنما « الفاعل الحقيقي للإبداع الثقافي هم الجماعات الاجتماعية، وليس الأفراد المنعزلين »[6]، ولا تبرز وظيفة هذا الفرد إلا من خلال تفاعله مع الجماعة واتحاده مع الكل، والأدب في نهاية الأمر ما هو إلا تعبير عن المجتمع الذي تكون فيه، فالمبدع هو جزء من هذا المجتمع . والنصوص عند غولدمان تفسر انطلاقا من التغيرات الاجتماعية والتاريخية، فالمبدأ الأساسي لكل « بحث سوسيولوجي وتكويني يقتضي أن نحلل حسب الإمكان مضمون وبنية كتابات كل كاتب في تسلسلها التاريخي »[7]، فالبنيوية التكوينية تبحث في البنية العميقة للنص الأدبي وتفسيرها ضمن البنيات الذهنية المشكلة للطبقة الاجتماعية، وبهذا يكون « التفسير السوسيولوجي هو أحد العناصر الأكثر أهمية في تحليل عمل فني... إن التفسير السوسيولوجي لا يشكل إلا خطوة أولى ضرورية . والمهم هو العثور على المسار الذي عبر فيه الواقع التاريخي والاجتماعي عن نفسه بواسطة الحساسية الفردية للمبدع في النتاج الأدبي المدروس »[8].

ولكي يضع غولدمان قواعد هذا المنهج ويؤسس له، كان من الواجب عليه وضع مقولات تؤسس له، منطلقا من المصطلح الذي أطلق على هذا المنهج فهو نفسه « يشير إلى أن ما هو مطروح ليس دراسة البنيات من حيث هي كذلك، بصورة سكونية ولا زمنية، بل العملية الجدلية لصيرورتها ووظيفتها، وهي فكرة ذات أصل ماركسي كما هو بديهي»[9]، والفرضية الأساسية التي تقوم عليها البنيوية التكوينية تتلخص في « أن كل سلوك إنساني هو محاولة لتقديم جواب دال على وضعية مطروحة، ومحاولة من خلال ذلك خلق توازن بين الذات الفاعلة والموضوع الذي مورس عليه الفعل »[10] . فقد جعل غولدمان

العلاقات بين العمل الأدبي والبنيات الذهنية الاجتماعية في حالة تناظر وتماثل، لا عملية انعكاس آلية ومرآوية كما وصفها الفكر الماركسي .

2 ـ مبادئ البنيوية التكوينية :

فرض غولدمان نوعية العلاقة بين الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبي؛ فهي علاقة جوهرية تقوم على أساس التماثل الموجود بين بنية النص الأدبي وعلاقتها بالبنيات الذهنية لطبقة أو فئة اجتماعية، فالبنيات الذهنية ليست ظواهر فردية « بل ظواهر اجتماعية، وهي لا تتعلق بالمستوى المفهومي، أو بالمضمون أو بالنوايا الشعورية، ولا تتعلق بإيديولوجيا المبدع، بل تتعلق بما يرى، بما يحس »[11]، وقد يكون التناظر بين البنية الذهنية للمجموعة والمبدع، تناظرا نسبيا وليس مطلقا وصارما . إن البنيات الذهنية التي أسست النتاج هي بنيات فردية بصورة خاصة، وعندما تحدث غولدمان عن البنيات الذهنية الاجتماعية كان يريد تحقيق رؤية العالم، وهذا « لا ينفي بتاتا أن هاته تتحقق بواسطة ومن خلال فرد معين»[12].

ومن أجل التأكيد على هذه النقطة يوضح غولدمان الفرق الجوهري بين السوسيولوجية البنيوية التي طرحها، وسوسيولوجيا المضامين والأشكال فحين «ترى سوسيولوجيا المضامين في النتاج مجرد انعكاس للوعي الجماعي، فإن السوسيولوجيا البنيوية ترى في النتاج أحد العناصر المكونة، وذات الأهمية القصوى للوعي الجماعي، العنصر الذي يسمح لأعضاء المجموعة بامتلاك معرفة بما يفكرون فيه، بما يحسون أو بما يعملون دون أن يعوا الدلالة الموضوعية لأفعالهم »[13]. وإذا كانت سوسيولوجيا المضامين في الأدب انعكاسا للواقع، والبنيوية الشكلية ترفض تفسير الواقع وتعزله فإن « البنيوية التكوينية تستهدف مبدئيا الغوص أقصى ما يمكن في المعنى التاريخي والفردي، معتبرة أن ذلك هو جوهر المنهج الإيجابي وجوهر دراسة التاريخ »[14]. وهنا تكمن أهمية البنيوية التكوينية، فهي تعيد الاعتبار للظروف الاجتماعية والثقافية والتاريخية للمبدع وتهتم بالسياقات الخارجية، ولا تعزل النص عن بيئته دون إقصاء للمبدع وأدبية النص، فقد استطاعت « تحقيق وحدة بين الشكل والمضمون؛ بين حكم القيمة وحكم

الواقع؛ بين التفسير والفهم؛ بين الغائية والحتمية »[15]، ودراسة البنية داخل حدودها الزمانية والمكانية، وفي وضعها التاريخي والاجتماعي، وكي يحدد غولدمان إجرائية هذا المنهج حدد بعض المفاهيم التي يجب الانطلاق منها وهي :

أولا. الفهم والتفسير

إن مصطلحي " الفهم " والتفسير " من أهم المقولات المركزية التي تؤسس البنيوية التكوينية، والفهم مصطلح ينطبق على مصطلح " البنية " الذي يتناول البنية السطحية للنص؛ أي «الكشف عن بنية دالة محايثة للموضوع المدروس »[16]، وهذا يتطلب من الباحث أن « يحيط بمجمل النص، وأن لا يضيف إليه أي شيء »[17]، أي دراسة البنية السطحية للنص والانطلاق، كل النص ولاشيء إلا النص. ثم الانتقال إلى عملية تفسير هذه البنية وإرجاعها إلى البنيات الذهنية المشكلة للجماعة، ومحاولة إظهار البنية العميقة التي تشكل سلوكا ذا طابع فردي أو جماعي. فالتفسير هو « البحث عن الذات الفردية أو الجماعية التي اتخذت البنية الذهنية المنتظمة للعمل الأدبي بفضلها طابعا وظيفيا، وذا دلالة، فالعمل الأدبي يمتلك وظيفة فردية ومرتبط بالبنية الذهنية المشكلة للعمل الأدبي، إلا أن هذه البنية الفردية لا تصنع هذا العمل لوحدها، وإنما التكوينية تركز على« الكيفية التي تتولد بها الأبنية العقلية على المستوى التاريخي، أي يركز على العلاقة بين رؤية العالم والأوضاع التاريخية التي تولدها »[18].

إذا فهذا المنهج يقدم « امتيازا مزدوجا في تصور الوقائع الإنسانية أولا بطريقة موحدة، ومن ثم في أنه فهمي وتفسيري في آن واحد . لأن إلقاء الضوء على بنية دلالية يؤلف عملية فهم، في حين أن دمجها في بنية أوسع هو بالنسبة للأولى عملية تفسير»[19]، فمقولة " التفسير" تمت إلى بنية شاملة، وأما " الفهم " ببنية مشمولة، ولكن كل من العمليتن يعتبر وجهين لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما لأنه « لا يوجد فرق أساسي بين الفهم والشرح، فإذا أردت أن أشرح خاطرة لباسكال وجب علي أن أعود إلى جميع الخاطرات، وإن درست جميع الخاطرات فهمتها ولكن يجب شرح أصولها، عندئذ ينبغي علي أن أعود إلى الجانسينية *، واستطيع فهم الجانسينية إن عدت إلى طبقة نبلاء الرداء،

وهكذا دواليك »[20]. فالعلاقة بين البنية الشاملة والبنية المشمولة تفسر العلاقة بين العمل الأدبي والبنية الذهنية الاجتماعية التي تكون فيه، فالعمل الأدبي هو عبارة عن جزء في بنية أوسع منه وأشمل . ولكن مع ذلك فليس « التفسير والفهم إذن سوى عمليتين عقليتين مختلفتين لكنهما عملية واحدة »[21]، والاختلاف القائم بين الفهم والتفسير، يكمن في كون الأولى داخل النص والتفسير خارجه؛ لأن « الفهم محايث للنص والتفسير يستدعي عوامل خارجية عن هذا الأخير»[22]، هذه العوامل الخارجية الموجودة خارج النص سواء تعلق الأمر بالبنيات الذهنية التاريخية أو بفئة اجتماعية فالعمل الأدبي لا يمكن عزله عن جذوره وأصوله التكوينية، وبهذا استطاعت البنيوية التكوينية أن تخرج البنيوية الشكلية من مآزق الدراسات الوصفية الجامدة التي أبعدت النص عن أصوله الاجتماعية والتاريخية والإيديولوجية؛ لأن أصل البنيات الدلالية هي « نتيجة لتكون ولا يمكن أن تفهم وتفسر خارج هذا التكون»[23] . وكان حرص غولدمان الشديد على تقديم منهج تكامل ينظر للنص الأدبي ويقاربه من جميع زواياه، ويهتم بوحدة العمل الأدبي من جانبه المضموني والحفاظ على خصوصيته .

ثانيا - البنية الدلالية :

تعتبر مقولة البنية الدلالية من أهم المرتكزات التي قامت عليها البنيوية التكوينية، هذا المصطلح الذي يعود الفضل في استعماله وتوظيفه في العمل الأدبي إلى غولدمان، والذي أخذه عن لوكاتش ومقولته عن الشمولية التي عالجها في كتابه " التاريخ والوعي الطبقي " ولكن ما معنى النظرة الشمولية ؟ .

حدد لوكاتش النظرة الشمولية في العصر الحديث قائلا : « لقد أصبح عالما واسعا جدا بحيث صار في كل أطرافه أغنى من عالم الاغريقين القدامى بعطاءاته ومخاطره . ولكن هذا الغنى بالذات أضاع المعنى الايجابي الذي كانت حياتهم تستقر عليه، ألا وهو النظرة الشمولية . (...) ولا وجود لهذه النظرة إلى الوجود، إلا إذا كان كل شيء متناسقا قبل إقبال الأشكال على استشاره، بحيث لا تكون مجموعة قسرية وإنما مجرد وعي أو ولادة كل ما كان كافيا في تطلعه الغامض، داخل كل ما يجب أن يتخذ شكلا وعندئذ تكون

المعرفة فضيلة والفضيلة سعادة، وعندئذ يبرز الجمال معنى العالم »[24]، فهذه النظرة الشمولية اللوكاتشية لا تتحقق إلا إذا كان العالم متناسقا ومتحدا، فهي تسعى إلى ربط الجزء بالكل، حيث يتحد الجزء بالكل ويذوب فيه . وأخد غولدمان هذه المقولة وصاغها في شكل آخر هي " البنية الدلالية "، وتدل على « الواقع والقاعدة لأنها تحدد في آن، المحرك الحقيقي (للواقع) والهدف الذي تصبو إليه هذه الشمولية التي هي المجتمع الإنساني، هذه الشمولية التي يشترك فيها معا العمل الذي يجب دراسته والباحث الذي يقوم بهذه الدراسة »[25]، أي إن البنية الدلالية هي الواقع المدروس والفاعل الدارس لها، فهي تبحث لتحقيق الانسجام والتماسك الذي يحقق شمولية النص بالدرجة الأولى، فلكي يفهم العمل الأدبي الذي يريد الباحث دراسته « يجب في المقام الأول اكتشاف البنية التي تأخذ بعين الاعتبار شمولية النص »[26].

إن مفهوم البنية الدلالية عند غولدمان لا يقتصر على وحدة الأجزاء المكونة لها والعلاقة الداخلية المحايثة، وإنما التطور والحركة داخل هذه البنية وعلاقاتها مع بنيات أوسع منها وأشمل، أي البنيات الذهنية المرتبطة بالفئات الاجتماعية . ولهذا حاول غولدمان إيجاد بنية تعبر عن « النظام وعن انسجام الموقف العام للإنسان تجاه المشاكل الرئيسية التي تطرحها العلاقات القائمة بين الناس، والعلاقات القائمة بين الناس والطبيعة »[27]، وبذلك حدد غولدمان حقيقة العمل الأدبي وعلاقته بالمجتمع لأن « وظيفة العمل الفني، داخل المجتمع، هي إعطاء شكل لرؤية العالم، وهو يكون من الأهمية والصلاحية بقدر ما يكون شكله منسجما ...»[28]، وهذا الانسجام يمثل الفكرة المركزية لأعمال غولدمان والتي تحيل إلى الفلسفة الكانطية، وهو الذي يربط غولدمان« بالفلسفة الكلاسيكية الألمانية »[29]، حيث يقول غولدمان : « إن الفكرة المركزية لأعمالي ولمنهجي هي أن الانسجام، ليس المنطقي، ولكن الوظيفي، هو إلى جانب الغنى والطابع اللامفهومي للمتخيل، إحدى العناصر المكونة للقيمة الاستطيقية، وهي التي تتسم، بصورتها تلك، الأعمال الكبرى، الأدبية أو الفنية »[30]، وبهذا تكون الأعمال الكبرى أعمالا فردية؛ أي يمكن النظر إليها على أنها جزء ،لكن يجب مراعاة أن هذه الأعمال الكبرى هي رؤى للعالم، وهذه الرؤى تتكون بالضرورة من طرف مجموعة اجتماعية .

فالبنية الدلالية هي البحث في أعماق العمل الفني للوصول إلى البنية العميقة الدالة؛ لأن مفهوم اللغة عند غولدمان مختلف عن المفهوم اللغوي عند دي سوسير، فاللغة عند غولدمان هي لسان الشعب؛ أي إن البنية العميقة التي يجب فهمها تكون مرتبطة بالكلام لأن « النصوص الأدبية هي أعمال ممتازة للكلام وليست بنى لغوية دلالية »[31]، وهذه النصوص تحمل دلالات اجتماعية وذلك يكون النص الأدبي « يستمد معناه وبنيته الدلالية من رؤية العالم التي يعبر عنها »[32]، وهذا يفسر علاقة البنية الدلالية برؤية العالم ومدى أهميتها في فهم النصوص وشرحها فهي « التي تسعفنا في إضاءة النص الأدبي وفهمه »[33]، كما تسمح للناقد معرفة رؤية المبدع وتصوره . وهذا في حقيقة الأمر هو الهدف الذي سعى إليه غولدمان وهو تبني «منظور واسع لا يغفل التحليل الداخلي للنتاج واندراجه ضمن البنيات التاريخية والاجتماعية، ولا يغفل كذلك دراسة السيرة الذاتية ونفسية الفنان، كأدوات مساعدة. وفي المحل الأخير يدعوا إلى إدخال النتاج في علاقة مع البنيات الأساسية للواقع التاريخي والاجتماعي»[34]، وبذلك يستطيع الخروج من جمود المنهج البنيوي الشكلي ورد الاعتبار للمبدع والمجتمع .

ثالثا - التماثل :

في بداية الدراسات الأدبية كان ينظر إلى الأدب على أنه انعكاس للواقع وتمثيل له إلا أن هذه النظرة بدأت تتغير على يد كل من لوكاتش وغولدمان، هذا الأخير الذي أكد على أن الأدب والمجتمع لا تربطهما علاقة انعكاس آلي، وإنما العلاقة بينهما قائمة على التناظر والتماثل؛ لأنه « يستطيع الوعي الجماعي لطبقة معينة أن يتعارض مع مضمون عمل أدبي محدد كقصة أو رواية خرافية أو ...، فالمهم في هذه الحالة هو أن تتناظر بنية العالم الخيالي الذي ترسمه هذه القصة أو الرواية الخرافية مع البنية الذهنية لهذه المجموعة البشرية »[35]، فالعلاقة بين المجتمع والأدب لا تقوم على المحاكاة، والتقليد، وإنما هناك تفاعل بين الأدب والمجتمع، بين الواقع والخيال، و« الفكرة الأساسية في البنيوية التكوينية تقضي بأن تكون الفئات الاجتماعية هي المبدعة الحقيقية للإبداع الثقافي، وعالم اجتماع الأدب ينطلق إذن للبحث عن تماثل البنية بين إيديولوجية الفئة الاجتماعي، فكر العمل الأدبي »[36]، هذا

التماثل الذي سعى غولدمان أن يكون مخالفا للمحاكاة والتقليد، لأن العلاقة بين الأدب والمجتمع لا يجب أن تكون علاقة انعكاس آلي، بل يجب أن تكون قائمة على التماثل، ولا يمكن أن نقبل « التعامل مع العمل الأدبي على أنه مجرد انعكاس للعالم الاجتماعي وسنوضح بأن الصلة التي يقيمها هذا العمل مع الواقع هي من قبيل القانون الجدلي، ومن قبيل جدلية تلعب فيها دورها الحرية الإبداعية للكاتب »[37]، والعمل الفني يجب أن يهتم بالمواضيع الاجتماعية ولكن في قالب فني وعالم متخيل والغاية من هذا التماثل في حقيقة الأمر هو إحداث الانسجام في البنية، حيث يمكن للتماثل إخراج البنية من مرحلة الفهم ونقلها إلى مرحلة التفسير أي تحقيق التوازن بين البنى الذهنية الداخلية للنص ذاته والبنى الخارجية عنه والمتمثلة في البنى الذهنية الاجتماعية .

رابعا - رؤية العالم :

يكمن جوهر الطرح الغولدماني لمنهجه في مقولة " رؤية العالم "، هذه المقولة التي تعتبر حجر الزاوية في المنهج السوسيوبنيوي، وغولدمان لا يأخذ هذه المقولة من معناها التقليدي البسيط « الذي يشبهها بتصور واع للعالم، تصور إرادي مقصود، بل هي عنده الكيفي التي يحس فيها وينظر فيها إلى واقع معين أو النسق الفكري الذي يسبق عملية تحقق النتاج »[38]. حاول غولدمان من خلال هذا الطرح جعل هذا المصطلح الفلسفي والفكري، مصطلحا يفسر علاقة الإنسان بالآخرين وبمجتمعه لأن هذه الرؤية « ليست واقعة فردية، بل واقعة اجتماعية تنتمي إلى مجموعة أو طبقة »[39]، فهي رؤية جماعية توحد بين فئات المجتمع والطبقة الواحدة ،لكن في واقع الأمر إن غولدمان اقتبس هذا المفهوم من هيجل وماركس ولوكاتش ؛ لأنه رأى أنهم « ربطوا بين الواقع وإمكانية وعيه، أو وعي أجزاء منه وربط هذه الأجزاء بالكل »[40]. هذه العلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع ويكون المعبر عن أفكارهم وأحاسيسهم، وتطلعاتهم، فهي« الاستقطاب المفهومي إلى أعمق مدى للاتجاهات الواقعية والوجدانية والفكرية، وحتى الحركية لأعضاء مجموعة ما»[41]، ويكون هذا التعبير في شكل عمل فني « بواسطة الألفاظ، وبواسطة كون محسوس من المخلوقات والأشياء »[42]، والمبدع العبقري الذي يمتلك القدرة في الوصول إلى

اكتشاف هذه الرؤية وبصورة أدق « على عاتق الكاتب المتميز يقع نقل هذه الرؤية نحو أعلى قدر من الوعي مع الاحتفاظ لها، على مستوى المتخيل »[43]، ولهذا ركز غولدمان على الأعمال الفنية العظيمة، ففي نظره العظماء هم فقط من يمتلكون القدرة على التعبير عن رؤية العالم، لأن الوظيفة الحقيقية للأعمال الفنية داخل المجتمع هي« إعطاء شكل لرؤية العالم ـ وهو يكون من الأهمية والصلاحية بقدر ما يكون شكله منسجما »[44].

فشرط تحقق رؤية العالم يكون بانسجام الفكر وتوحده، فـ« النظرة إلى العالم هي وجهة نظر متماسكة وموحدة حول مجمل الواقع والحال ـ أنه نادرا ما يكون فكر الأفراد ـ مع بعض الاستثناءات القليلة متماسكا وموحدا »[45]، ومع هذا فإن هذا الانسجام الذي يكاد يغدو مجرد نظرة ميتافيزيقية لا تجعل من النظرة إلى العالم أمرا صعب المنال ولكن تبقى « النظرة إلى العالم في نظام التفكير الذي يفرض نفسه في ظروف معينة على مجموعة من الناس الموجودين في ظروف اقتصادية واجتماعية متماثلة، أي على بعض الطبقات الاجتماعية ...قلة من الأفراد تلك التي تحقق ذلك بشكل كامل»[46]، وهذا ما يميز الأعمال العظيمة، فالمبدع الذي يمتلك هذه الرؤية هو المبدع الذي يستطيع إنتاج أعمال عظيمة وخالدة، وهذه الصفة لا تتوفر في الجميع لكن في خاصة الخاصة، لأن « الفيلسوف والكاتب يستوعبان أو يحسان بهذه الرؤية في مجموع أجزائها وعواقبها، ويعبران عنها من خلال اللغة، على الصعيد المفهومي أو الإحساسي »[47]، وبهذا يسعى غولدمان إلى تحقيق هذه الرؤية من خلال العلاقات الاجتماعية بين طبقات المجتمع، ورفض الرؤية الفردية المنعزلة عن المجتمع، وبذلك أكد على البعد الاجتماعي لمنهجه دون أن يلغي تميز الأديب وتفرده، ويرى أن « الارتباط بين البعدين الجماعي والشخصي للكاتب المبدع، لا يمس إلا البنى الذهنية؛ أي المقولات التي تسير المجموعة والفرد في آن . فالبنى الذهنية ذات بعد جماعي، ولا تمت بصلة إلى تصور الفنان ونواياه الواعية وغير الواعية الأيديولوجية أو الفردية، وإنما ترتبط بما يراه ويحسه ويعايشه . فيكون عندئذ جزءا من كل »[48]، وبهذا حافظ غولدمان على خصوصية العمل الأدبي وتميز المبدع، دون أن يسقط في مزالق الدراسات السوسيولوجية السابقة . ومقولة رؤية العالم هي الأساس المعرفي التي تقوم عليه البنيوية

التكوينية؛ لأنها تنظر للأعمال الإبداعية على أنها « أبنية عقلية تتجاوز الفرد وتنتمي إلى جماعات (أو طبقات) محددة، هذه الأبنية العقلية (رؤى العالم) تبنيها الجماعات الاجتماعية وتهدمها بلا انقطاع، خلال عملية التعديل التي تدخلها على صورها العقلية للعالم، استجابة للواقع المتغير من حولها، وتظل هذه الصور مفتقرة إلى التحديد والتحقيق الكامنين في وعي الجماعة، أو الطبقة الاجتماعية إلى أن يظهر الكتاب العظام القادرون على بلورتها في " رؤية للعالم " محددة متلاحمة الشكل »[49].

وما يميز غولدمان، قدرته على إخراج منهجه من دائرة الشكل الفردي، والبنية الفردية المنعزلة عن أصولها وسياقاتها الخارجية إلى البنية الجماعية الكلية التي تتحد مع غيرها لتشكل نسقا كليا يتفاعل مع البنى الذهنية الجماعية، ويصبح بذلك المبدع صاحب رؤية كونية يستطيع تحقيقها عن طريق موهبته الفردية، والمبدع العبقري هو القادر على ذلك .

خامسا - الوعي القائم والوعي الممكن :

إن مقولتي الوعي القائم والوعي الممكن من المقولات التي أخدها غولدمان عن أستاذه لوكاتش التي وردت في "كتابه التاريخ والوعي الطبقي"، والذي قال عنها غولدمان « ... إن إدخال مقولة النظرة الشمولية وتأكيد استحالة التمييز بين الأحكام المادية والأحكام التقويمية، ولا سيما إدخال المبدأ الفعال في الفكر الجدلي إلى العلوم الاجتماعية، أعني به الوعي الممكن، يخلق إمكانية إقامة علم اجتماع جدلي إيجابي »[50]، فحديث غولدمان عن الوعي الممكن يجعل منه مبدءا فعالا، قائما على الجدل والتفاعل .

وقبل وضع تعريف محدد لهذا المصطلح يعترف غولدمان بأنه من المصطلحات الصعبة والمستعصية، وصعوبته تكمن في وضع ماهية محددة ودقيقة له، وهذا راجع للامحدوديته ومرونته بالنظر « إلى الطابع الانعكاسي لكل تأكيد على الوعي، نتيجة لكوننا عندما نتحدث عنه، فإنه يكون موجودا باعتباره " الذات " و" الموضوع " في الخطاب»[51]، إذن فصعوبة تعريف هذا المصطلح يكمن في كونه مصطلحا زئبقيا، لأننا قد نجده في الذات المبدعة كما يمكن أن يكون بطريقة عكسية؛ أي في الموضوع، وهنا تكمن

الإشكالية، غير أن هذه الصعوبة لا تقف كحجر عثرة في وجه غولدمان؛ لأنه مع ذلك يضع تعريفا لهذا المصطلح فيقول : « يظهر لنا أن بالإمكان تخصيص الوعي على أنه "مظهر معين لكل سلوك بشري يستتبع تقسيم العمل »[52]، هذا التعريف المؤقت الذي وضعه غولدمان يحاول فيه شرح العلاقة القائمة بين الوعي والحياة الاجتماعية، التي وصفها على أنها "مظهرا معينا " أي افتراض وجود وعي في كل وقت وهذا يستلزم وجود « ذات عارفة وموضوع للمعرفة »[53]، ثم ينتقل غولدمان في طرحه لمعرفة " الذات العارفة " وطبيعتها، وهي الذات التي « ليست فردا معزولا ولا جماعة بدون زيادة، بل هي بنية جد متغيرة ينضوي تحتها في آن الفرد والجماعة، أو عدد معين من الجماعات »[54]، وهذا يعني أن الوعي يفرض وجود ذات عارفة وموضوع المعرفة، وعندما يكون موضوع المعرفة هو الفرد ذاته أو واقعة تاريخية أو اجتماعية يصبح هناك تطابق بين الذات العارفة وموضوع المعرفة . هذا التطابق الذي قد يكون كليا أو نسبيا وهنا « يكتسب الوعي طابعا انعكاسيا تقريبا»[55]، وهنا يكمن جوهر الوعي وأهميته، فلكي ندرس أي واقعة وعي يجب بحث درجة ملاءمتها للموضوع، فقد تكون الملاءمة كلية يشترط في ذلك أن يتصل «الوعي بمجموع الكون والتاريخ، بل يجب مع ذلك تحديدها بأكثر ما يمكن من الصرامة»[56]، فتحقيق هذا الوعي مرتبط بتوفر شرط الملاءمة التامة، وقد وضح غولدمان ذلك قائلا :

«كل واقعة اجتماعية هي من بعض جوانبها الأساسية، واقعة وعي وكذلك ... كل وعي هو- قبل كل شئ- تمثيل ملائم لقطاع معين من الواقع، على وجه التقريب »[57]، إذن تصبح الدراسات السوسيولوجية مرتبطة بدرجة الوعي لكي تستطيع تحقيق خاصيتها الإجرائية، وبذلك يكون شرط إجرائية البنيوية التكوينية هو تحقيق الملاءمة والتطابق بين الوعي الفردي والوعي الجماعي والواقع، فعندما « يتعلق موضوع المعرفة بالفرد نفسه بأي حدث تاريخي أو اجتماعي، فإن الفاعل والموضوع يتلازمان حتما »[58] . والوعي القائم هو الوعي الموجود والآني، وهذا الوعي تمثله شخصيات في الواقع، إلا أن الأعمال الفنية لا يمكن فهمها وتفسيرها لدى مختلف الفئات الاجتماعية دون أن نضعها ضمن كليات أكبر

منها وأكثر اتساعا وشمولية وهو الوعي الممكن، وبهذا يكون الوعي الممكن مفسرا للنظرة إلى رؤية العالم . ولكل من الوعيين خصائص ومميزات، فالوعي القائم هو وعي فعلي، لحظي وآني، تمثله شخصيات في الواقع لأن « كل مجموعة اجتماعية تسعى إلى فهم الواقع انطلاقا من ظروفها المعيشية والاقتصادية والفكرية والدينية والتربوية»[59]، كما أنه وعي سلبي لا يمتلك الحلول لمشاكله، وأما الوعي الممكن، فهو الوعي المستقبلي المتغير الذي يحمل معه الحلول للمشاكل، وتكون له نظرة ورؤية للعالم، فهو « ما يمكن أن تفعله طبقة اجتماعية ما، بعد أن تتعرض لمتغيرات مختلفة دون أن تفقد طابعها الطبقي »[60]، وبذلك يصبح الممكن وعيا يحمل نظرة فلسفية وإيديولوجية معينة، فهو وعي يبحث عن التغير والتطوير، وبهذا نستطيع أن ندرك أشكال الوعي لدى طبقة اجتماعية وبالتالي فا «الوعي الممكن يتضمن الوعي الفعلي وإضافة عليه، أي إنه يستند عليه ولكنه يتجاوزه، إنه وعي شمولي وهو الذي يحرك التاريخ البشري، ففي العمل الاجتماعي والسياسي يتضح أن صلات القربى بين الطبقات الاجتماعية لا يمكن أن تتم على أساس برنامج يتناسب مع الحد الأقصى من الوعي الممكن المتوفر لدى الطبقة الأقل تقدما »[61]، ويصبح الوعي الممكن يعبر عن رؤية العالم لطبقة اجتماعية معينة، وبالتالي تصبح الأعمال الأدبية تعبيرا عن هذه الرؤية، والعمل الفني «يجسد ويبلور رؤية العالم لدى هذه الطبقة أو تلك ويجعلها تنتقل مع الوعي الفعلي الذي بلغته إلى الوعي الممكن، ولا يتوفر ذلك إلا للكتاب والمفكرين الكبار دون الصغار منهم الذين يتوقفون عند الوعي الفعلي لدى طبقة ما ويقتصرون على وصفه»[62]، وهذا سر اهتمام غولدمان بالأعمال الفنية العظيمة، ويربط غولدمان العلاقة بين الوعي الممكن ورؤية العالم ويصفها بأوصاف ماركسية يقول: «فمنذ نهاية العصر القديم وإلى أيامنا هذه، والطبقات الاجتماعية تشكل البنيات التحتية لرؤيات العالم ...انه كلما تعلق الأمر بإيجاد البنية التحتية لفلسفة أو لتيار أدبي أو فني، فإننا سنتوصل لا إلى جيل أو أمة أو كنيسة أو مهنة أو أي مجموعة أخرى، بل إلى طبقة اجتماعية وعلاقاتها مع المجتمع . إن الوعي الممكن الأقصى لطبقة اجتماعية يشكل دائما رؤية للعالم متماسكة سيكولوجيا وتستطيع أن تعبر عن نفسها على المستوى الديني والفلسفي والأدبي والفني »[63]. إذن فالوعي الممكن هو الذي يشكل رؤية العالم بل«الوعي الممكن الذي هو

رؤية للعالم »[64]، لدى أي طبقة اجتماعية وهذا الأخير ـ رؤية العالم ـ أساس تشكله يرتبط بالطبقات الاجتماعية، فالعلاقة القائمة بينهم علاقة جدلية قائمة على التفاعل . وقد لخص غولدمان حقيقة الوعي القائم والوعي الممكن بقوله : « لنلخص استنتاجاتنا الأولى :

أ ـ كل واقعة اجتماعية تستتبع وقائع وعي بدون فهمها لا يمكن دراسة تلك الواقعة بكيفية اجرائية .

ب ـ العنصر البنيوي الأساسي لوقائع الوعي هذه، هو درجة ملاءمتها وكذلك اللازمة المقابلة لها أي درجة اللاتلاؤم مع الواقع .

ج ـ إن المعرفة الفاهمة والمفسرة لوقائع الوعي ولدرجة تلاؤمها أو عدم تلاؤمها، ودرجة حقيقتها أو خطئها، لا يمكن الوصول إليها إلا بإدراجها ضمن كليات اجتماعية أكثر اتساعا نسبيا، وهذا الادراج وحده يسمح بفهم دلالة تلك المعرفة وضرورتها.»[65].

وبذلك نستطيع إدراك العلاقة بين الوعي القائم والوعي الممكن على أنها علاقة الجزء بالكل وعلاقة الوعي الممكن ورؤية العالم والطبقة الاجتماعية .

3 . مآخذ على البنيوية التكوينية

رغم محاولة غولدمان تأسيس منهج نقدي يتميز بالدقة العلمية والإجرائية، إلا أن البنيوية التكوينية تعرضت لانتقادات واسعة وكثيرة، معظمها وجهت لها من أنصار سوسيولوجيا النص . ومن بين هذه الانتقادات:

ـ إن البنيوية التكوينية ورغم مجهودات غولدمان إلا أنها بقيت في جانبها التنظيري ولم ترق إلى الجانب التطبيقي الفعلي الإجرائي الذي كان غولدمان يطمح إلى تحقيقه، فلم يتمكن من وضع الوسائل الإجرائية العملية للقيام بالتحليل البنيوي التكويني للنصوص الأدبية[66].

ـ إن البنيوية التكوينية تشترط في قراءتها للنصوص والأعمال مرحلتين؛ هما الفهم والتفسير لجميع النصوص، وهذا يبقى من المبادئ المثالية التي طالبت بها البنيوية

التكوينية، لأنه لا يمكن دراسة العمل الأدبي دراسة محايثة داخل النص ثم البحث عن ما يقابلها ويفسرها في المجتمع .

ـ تعرض مفهوم الكلية والانسجام لانتقادات كثيرة لأن هناك من ذهب إلى أن «قيمة العمل الأدبي تصدر عن التناقض بين العمل الأدبي والواقع، وعن التناقض داخل العمل ذاته، أو عن التناقض بين العمل والإنسان »[67].

ـ مفهوم الشمولية وعلاقته بالبنية الدلالية يبقى في المجال النظري ولا يمكن تطبيقه في الواقع لأن مفهوم البنية الدلالية عند غولدمان لا يقتصر على وحدة الأجزاء المكونة لها والعلاقة الداخلية المحايثة، وإنما التطور والحركة داخل هذه البنية وعلاقاتها مع بنيات أوسع منها وأشمل . وهذا ما يجعل هذا المفهوم المثالي قيد النظري لصعوبة تحقيقه في الواقع فكيف يمكن للناقد معرفة كل البنيات الذهنية المرتبطة بالفئات الاجتماعية لجميع الأعمال والنصوص .

ـ انتقد زيما غولدمان في جعله رؤية العالم ليست واقعة (أو حدثا) وإنما العمل «العظيم هو وحده الذي يحتوي على بنية للوعي الجماعي الاجتماعي تظهر رؤية العالم كلية دالة من القيم والمعايير»[68] وبهذا تكون النظرة إلى رؤية العالم نظرة مثالية ولا تعبر عن الوعي التجريبي الواقعي الذي يعبر عن الفئات الاجتماعية .

ـ اعتبر غولدمان أن العمل الأدبي والفني ليس من إنتاج المؤلف بوصفه فردا وإنما هو عمل مزدوج « ينظم وحدة العمل من جانب ويعبر عن رؤية للعالم، عن وعي جماعة اجتماعية من جانب آخر»[69]، فالمهم بالنسبة للبنيوية التكوينية مضمون العمل الفني والطريقة التي يعبر بها عن جماعته .

ـ ويمكن اعتبار أهم نقد وجه للبنيوية التكوينية الذي وجهه لها أنصار سوسيولوجيا النص، اهتمامها بالمضمون على حساب الجانب الشكلي، وإهمالها للجانب اللغوي وتركيزها على المضمون، والبحث عن العلاقة التي تربطه بالواقع أدى إلى إغفال وحدة الأثر وإخفاء طابعه الأدبي المتميز .

ـ ركزت البنيوية التكوينية في دراستها للأعمال الأدبية على الأعمال العظيمة، لأنها ترى أن هذه الأعمال لكتاب عباقرة وهم وحدهم القادرون على اكتشاف رؤى العالم،

ويمتلكون موهبة وعبقرية تمكنهم من التعبير عن الوعي الممكن لطبقة اجتماعية معينة، وبذلك أغفلت باقي النصوص لأنها تنظر إليهم على أنهم كتاب وأدباء يكتفون بالوصف فقط وهذا يدل على عجز الوسائل الإجرائية للبنيوية التكوينية، لأن المنهج العلمي الدقيق الذي يمتلك حقيقة وسائل وأدوات إجرائية يستطيع أن يطبقها على مختلف أنواع النصوص .

ـ البنيوية التكوينية منهج تولد من البنيوية الشكلية؛ وأساسها مقاربة النصوص بطريقة وصفية دون إطلاق الأحكام، لكننا نجدها تناقض مبادئها، فهي تحكم على النصوص الصغيرة ـ في نظرها ـ بالضعف فقط لأن أصحابها لا يمتلكون رؤية للعالم فهم ليسوا عباقرة، وهذا الحكم لم يكن بعد دراسة هذه النصوص، وهذا ما جعلها لا تقارب النصوص الصغيرة .

وبهذه الأسس والمبادئ تميزت البنيوية التكوينية لأنها أرادت أن تحقق دراسة مثالية للنصوص والأعمال مع الحفاظ على جانبها الاجتماعي والتركيز على مضمونها، فضيعت بذلك إجرائية المنهج في الواقع، وبقيت معظم الأسس التي قامت عليها قيد التنظير، كما أهملت الجانب اللغوي والشكلي للنصوص . ومع هذا تبقى البنيوية التكوينية من المناهج النقدية المهمة والتي لا تزال تجلب النقاد والباحثين .

قائمة المصادر والمراجع :

[1] ـ جمال شحيد : في البنيوية التركيبية (دراسة في منهج لوسيان غولدمان)، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط 01، 1983، ص 3 .

[2] ـ رومان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، دط،1998، ص 66 .

[3] ـ لوسيان غولدمان وآخرون : البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ت محمد سبيلا وآخرون، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط 1، 1984، ص 7 .

[4] ـ شحيد جمال : م س، ص 9 .

[5] ـ شحيد جمال : م س، ص 9 .

[6] ـ صدار نور الدين : مدخل إلى البنيوية التكوينية في القراءات النقدية العربية المعاصرة، عالم الفكر، العدد1، المجلد 38، 2009، ص 62 .

[7] ـ لوسيان غولدمان : مقدمات في سوسيولوجية الرواية، تر: بدر الدين عرودكي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط 01، 1993، ص 37 .

[8]- باسكاوي بون : ضمن غولدمان لوسيان وآخرون، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، تر: محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط 01، 1984، ص 42 .
[9]- باسكاوي بون : م س، ص 43 .
[10]- المرجع السابق، ص 44 .
[11]- بون باسكوي: م س، ص 45 .
[12]- نفسه، ص 45 .
[13]- المرجع السابق، ص 46 .
[14]- المرجع نفسه.
[15]- المرجع السابق، ص 47 .
[16]- م س، ص 17.
[17]- المرجع نفسه .
[18]- مدخل إلى البنيوية التكوينية في القراءات النقدية العربية المعاصرة: م س، ص 75.
[19]- مدخل إلى البنيوية التكوينية في القراءات النقدية العربية المعاصرة: م س، ص 75.
[20]- مدخل إلى البنيوية التكوينية في القراءات النقدية العربية المعاصرة: م س، ص 75.
[21]- مدخل إلى البنيوية التكوينية في القراءات النقدية العربية المعاصرة: م س، ص 75.
[22]- م س، ص 149 .
[23]- شحيد جمال : م س، ص 20 .
[24]- م س، ص 81 .
[25]- م س، ص 61 .
[26]- بون باسكوي : م س، ص 48 .
[27]- لوسيان غولدمان : العلوم الانسانية والفلسفة، ت يوسف الأنطكي، م محمد برادة، المشروع القومي للترجمة، ط 1، 1997، ص151.
[28]- جاك لينهارت : من أجل استيطيقا سوسيولوجية، محاولة لبناء استيطيقا لوسيان غولدمان، ضمن البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص 57 .
[29]- م س، ص 57 .
[30]- المصدر السابق، ص 57 .
[31]- شحيد جمال : م س، ص 82 .
[32]- نفسه، ص 82 .
[33]- حمداوي، جميل: مدخل إلى البنيوية التكوينية، مقال على شبكة الانترنت، موقع منبر الوطن.
[34]- بون باسكوي: م س، ص 48 .
[35]- شحيد جمال : م س، ص 83 .
[36]- جاك دوبوا : نحو نقد أدبي سوسيولوجي، تر: قمري البشير، ضمن: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص 75.
[37]- م س، ص 72 .
[38]- بون باسكوي : م س، ص 48 .
[39]- نفسه، ص 48 .
[40]- شحيد جمال : م س، ص 37 .

[41]- جاك دوبوا : م س، ص 75 .
[42]- م س، ص 75 .
[43]- نفسه، ص 75 .
[44]- جاك لينهارت : م، س، ص 57 .
[45]- لوسيان غولدمان: المادية الديالكتيتكية وتاريخ الأدب والفلسفة، ت نادر ذكرى، دار الحداثة للطباعة والنشر، ط 1، 1981، ص 8 .
[46]- المصدر السابق، ص 8.
[47]- لوسيان غولدمان : المادية الجدلية وتاريخ الأدب، ت محمد برادة، ضمن البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص 15 .
[48]- شحيد جمال : م س، ص 78 .
[49]- رومان سلدن : م س، ص 66 .
[50]- صدار نورالدين : م س، ص 100.
[51]- لوسيان غولدمان : الوعي القائم والوعي الممكن، ت محمد برادة، ضمن البيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص 33 .
[52]- نفسه، ص 33.
[53]- م س، ص 34 .
[54]- م س، ص 34 .
[55]- نفسه، ص 34 .
[56]- م س، ص 34 .
[57]- م س، ص 34 .
[58]- نفسه، ص 34 .
[59]- م س، ص 40
[60]- نفسه، ص 40 .
[61]- نفسه، ص 41 .
[62]- غولدمان لوسيان : الفلسفة والعلوم الإنسانية، ص ص 115 – 116 .
[63]- بون باسكوي: م س، ص 48 .
[64]- م، س، ص 122 .
[65]- غولدمان لوسيان : الوعي القائم والوعي الممكن، ص 33 .
[66]- بيير زيما : النقد الاجتماعي نحو علم اجتماع للنص الأدب، تر: عايدة لطفي، دار الفكر، القاهرة، ط 1، 1991، ص 12 / بتصرف .
[67]- شعلان عبد الوهاب : المنهج الاجتماعي وتحولاته، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2008، ص 62.
[68]- بيير زيما: م س، ص 53.
[69]- بيير زيما : م س، ص 52 .